المصطلح السيميائي السردي في المدونة النقدية الجزائرية

أ. جدي كمال
جامعة سوق أهراس (الجزائر)

Abstract:
This article seeks to reveal the extent of the presence of the term semiotic narrative west of the Algerian monetary Entries through the receipt and analysis and translation attempts in the work of some Algerians critics such as Abdul Malik Mertadh and Abdul Hamid Buraio and Rashid bin Malik, and their approach is to capture the semantics hidden behind the formal facade of the term narrative attributed to : Grimass and bearing to the problem of acculturation and intellectual conflict with the other

Résume:
Cet article cherche à révéler l'étendue de la présence de la narration sémiotique termel'ouest dans la literature critique littéraire algérienne à travers les tentatives de réception et d'analyse et de traduction dans le travail de certains Algériens critiques comme Abdelmalek Mertadh et abdelhamid bouraio et Rachid ben Malek, et leurapproche pour capturer la sémantique cachés derrière la façade formelle le récitterme de gremass, et le palier au problème de l'acculturation et de conflit intellectuellee avec l'autre.

الملخص :
يسعى هذا المقال إلى الكشف عن مدى حضور المصطلح السيميائي السردي الغربي في المدونة النقدية الجزائرية من خلال محاولات التلقي والتحليـــل والترجمة في أعمال بعض النقـــاد الجزائريين مثل عبدالمالك مرتـــاض وعبد الحميد بورايو ورشيد بن مالك، ومنهجهم في القبض على الدلالات الثاوية وراء الواجهة الشكلية للمصطلح السردي الغريماسي والحاملة لإشكالية المثاقفة والصراع الفكـــري مع الآخر.

على الرغم مما تنفرد به الساحة النقدية الجزائرية من خصوصيات تميزها عن مثيلاتها العربية، بالنظر إلى تباين الظروف واللبس الذي يحيط بالتجربة النقدية الجزائرية في قراءة النظريات الغربية ومقاربتها، فإن الباحث الجزائري، وإن تأخر على مواكبة ذلك المنجز الغربي في أوانه – على غرار النقاد التونسيين والمغاربة – إلا أنه أبدى منذ ثمانينات القرن العشرين رغبة وقدرة على تعاطي هذا النوع من المعرفة، وإجرائها على المنجز العربي بشقيه الشعري منه والسردي

ونحن نجوِّد النظر في المدونة النقدية الجزائرية، المنضوية تحت مظلة هذا الضرب في التعامل، ألفينا أن هناك عددا من الأسماء التي لعبت دورا فعالا في الممارسة النقدية السيميائية، وأسهمت في توطين المصطلح النقدي السردي ضمن الدراسات العربية على غرار: مولاي علي بو خاتم، عبد الحميد بورايو، السعيد بوطاجين، حسن خمري رشيد بن مالك، ممن تجمعهم رابطة السيميائيين الجزائريين وغيرهم ممن كان في مصنفاتهم للمصطلح السردي غلبة وسلطان كـــ: عبد المالك مرتاض الذي يعد وعبد الحميد بورايو ورشيد بن مالك، من أكثر الأسماء تداولا في مسألة الرِّيادة، والاشتغال على المصطلح النقدي

كما وقفنا لهم على مجموعة معتبرة من الأعمال، لا يسع المقام لبسط محتوياتها إلا أننا آثرنا أن:

- نبحث عند عبد المالك مرتاض، في كتابه في نظرية الرواية، حضور المصطلح بما طرحته الســـرديات، بوصـــفها نظاما للمحكي، يستمد دلالاته من سياقاته الحضارية، ويتحدد معرفيا ضمن مناخاته الفكرية.
- نبحث في تلقي المصطلح السردي، عند عبد الحميد بورايو، من خلال دراساته القصص الشعبي، ثم المسار السردي وتنظيم المحتوى.
- ندرج بعض اعمال الناقد رشيد بن مالك، التي جمعت بين التلقي والترجمة للمصطلح النقدي السردي مـــن خـــلال منجزاته:
- البنية السردية في النظرية السيميائية.
- ترجمته لكتاب: السيميائية أصولها وقواعدها.
- ترجمته لكتاب: السيميائية: مدرسة باريس.

المصطلح السيميائي السردي عند عبد المالك مرتاض: إن المطلع على مسيرة النقد الجزائري في العصر الحديث، يسلم بأن الدكتور، عبد المالك مرتاض، اشتغل اكثر من غيره على المصطلح النقدي واشتقاقاته، وكانت له فيه غلبة وآراء، منها ما انتهى اليه حين " فرّق بين التناص الذي يقابل عند العرب مفهوم السرقة، وما دخل تحته من مصطلحات، وما بين التناصيّة، وتعني عنده النظرية، وتبادل التأثير بدون قصد غالبا، وبقصد غير قائم على السرقة الأدبية الموصوفة أحيانا، وتحاور طائفة من النصوص، وتظافرها لأنشاء نص جديد على أنقاضها " (1).

وإذا ما تصفّحنا مدونة الناقد عبد المالك مرتاض، اتضحت لنا هيمنة المصطلح السردي، وحضوره القوي بين الترجمة والتقعيد خاصة في مؤلفاته التنظيرية مثل كتابه الموسوم بـــ: في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد. يأتي كتاب مرتاض في نظرية الرواية، نهاية التسعينيات، بعد الرسوخ النظري والتطبيقي للسرديات في النقد المغاربي، حيث وزّع مرتاض عمله على تسع مقالات: تحدثت الأولى عن نشأة الرواية، وعرض في الثانية لأسس البناء السردي في الرواية الجديدة وكانت مصطلحات الشخصية وماهيتها وبنائها وإشكالياتها هي مدار المقالة الثالثة، فيما اعتمد في بقية المقالات – خاصة الرابعة والخامسة – على البحث في المصطلح السردي وما يحيل عليه في اللغة العربية، ضمن محاولة تأصيلية عابرة.

وإذا ما ألقينا نظرة على المصطلحات التي يوظفها عبد المالك مرتاض، وجدناه ينحو إلى تجاهل المصطلحات شائعة الاستعمال بين النقاد، ويعمد إلى نحت مصطلحات مغايرة لما ألف الدارسون التعامل معه، فقد اقترح مصطلح " سردانية، للإحالة على Narratologie، ومصطلح سرديات، للإحالة على Récit، وهو ما يدعو إلى تنافر جهود الباحثين والمترجمين العرب في سعيهم في توحيد المصطلح النقدي "(2).

كما عرض ملاحظاته للمصطلحات والمفاهيم، أثناء بسطه لشبكة العلاقات السردية، حول العلاقة التي تنعقد بين:(السرد والمسرود، والمسرود له، والسردانية والسرديات) والتي تمثل – حسبه – شبكة من المفاهيم والمصطلحات المتداخلة والمتمايزة المتقاربة والمتباعدة في الوقت ذاته، وأقام حجته بترجمة نص قصير من المعجم المعقلن لنظرية الكلام، أوردته الباحثة الجزائرية سليمة لوكام كما يلي:

النص:

Syntaxique ou à chaque unité correspond un type, nous trouvons ainsi en présence d'une hiérarchie stiricto sensu, sont des constituants des programmes narratifs. Les rôles actants syntaxiques actanciel défini. Les actants fonctionnels relèvent du alors que les, actanciels sont calculables à l'intérieur des parcours narratifs schéma narratif d'ensemble (3).

الترجمة:

أمام تراتبية، تراكبية حيث كل وحدة تقابل صنفا عاملاتيا محددا، فالعاملات التراكبية بالمعنى الدقيق، هي مشكلات البرامج السردية، والأدوار العاملاتية هي القابلة للحساب داخل المسار السردي، على حين أن الفاعلات الوظيفية تتمخض للرسمة السردية في المجموع "(4).

وتعلق سليمة لوكام على هذه الترجمة بالقول: " وبالرجوع إلى الصفحة التي أشار إليها في الهامش وجدنا أن المؤلِفيْن لم يقصدا بهذا النص التنظير للرواية، كما يرى، وإنما تحديد المسار السردي (5) Le parcours narratif

ثم تردف لوكام: أن مرتاضا انبرى للتعليق على ما ورد في النص السابق موجها نقده لغريماس فقط، ومركزا على الدلالة اللغوية لكلمة تراتبية، محيلا على أصلها الإغريقي، ثم أوغل في التفاصيل، إيغالا ينصرف عن الخوض في المفاهيم وانعطف إلى طرح الأسئلة(6)، مثل: هل الترجمة العربية تجعل العامل مقابلا للمصطلح Actant ترجمة سليمة حقا ؟ وهل الرسمة السردية، Le schéma narratif تعني شيئا حقا في نظرية السرد؟، ثم ما البرامج السردية، Des programmes narratifs ؟ التي لعلها أن تتجسد في سلسلة من المفاهيم المعقدة التي يحيل بعضها على بعض، ويتوالج بعضها مع بعض، الى درجة التيه والحيرة ؟ إن البرنامج السردي نظام أولي للبنية المركبة السردية للسطح وهو مشكل من مقول الفعل، وهو الذي يدبر امور مقول الحال(7) وترى لوكام أن مرتاضا لم يستقر على المصطلح المقابل لـــــ: Récit فيوظفه مترجما إلى سرديات، ثم يوظفه في بعض شروحاته الأخرى بمفهوم العمل السردي، وهذا لا يجعلنا على يقين، أن ما يقصده من مصطلح السرديات، هو ما يقابل علم السرد Narratologie خاصة وأنه مقابلا لمصطلح محكيات، وكان قد استعمله في أكثر من موضع في كتابه بهذا المعنى، ولكننا نرى أنه من المنهجي الإشارة إلى أن مثل هذا المصطلح، يقتضي تدبرا في مبحث الأجناس الأدبية، وتدرعا بالمفاهيم السردية، وطرق مقاربتها (8).

ولكننا نسجّل أنّ مرتاضا يعترض في موضع آخر على آراء رواد السرديات مثل بارت وغريماس وجينيت في مقالة (مدخل إلى التحليل البنيوي للمحكي)،كما يستحدث بعض المصطلحات مثل: الأحدوثة، لترجمة L'histoire والمهذأة لترجمة La fable والمشجأة، لترجمة مصطلح La tragédie، والتي يجمع المترجمون على ترجمتها تباعا إلى القصة، الحكاية الخرافية، المأساة.

أما فيما يرتبط بقضية التمييز بين المؤلف والسارد، يذهب مرتاض إلى تحديد دور كل منهما ووظيفته كون المؤلف هو الذي يسوق الحكاية، ويلفِّق أحداثها ويرسم ملامح شخصياتها وينسج لغتها، والسارد عنده هو أحد الأشكال التي اخترعها الرواة منذ القدم، وشخصية مزعومة، تتولى العمل الذي ننسجه باللغة، والسارد لدى مرتاض " شيء وهمي عبثي"(9) يستبد بما ليس من حقه الاستبداد به.

كما يصف مرتاض آراء تودوروف" بالبلاء المبين، في تعريبه لمصطلح: Le lecteur implicite بـــ: القارئ الضمني، التي تحيل على موت المؤلف كما تحيل عليه في آن واحد، وهو ما عدّه مرتاض مغالطة وبالمقابل لم يجد حرجا في استعمال مصطلح المؤلف مرادفا لـــ السارد في اصطناع جينيت تقنية المؤلف/السارد بدعوى أن رأي جينيت لا يقوم على إقصاء المؤلف الذي يتولى شؤون نصه "(10).

وأهم ما نخلص إليه، هو أن تعامل عبد المالك مرتاض مع المصطلح السردي في هذه الدراسة والمبني أغلبه على التساؤل المحيّر، لا يخضع لمبدأ التحاور المتعادل مع الآخر، بالإضافة إلى أنه لا ينبني على أي تعليل منطقي يجعله ينكر العلاقات المتناغمة بين المؤلف والسارد والقارئ (المتلقي) في شبكة السرد، كما أن آراءه لم تعضَّد بأي دليل يؤسس لفعل تأصيلي للمصطلح يخالف المواضعات الاصطلاحية المتفق عليها.

المصطلح السيميائي السردي عند عبد الحميد بورايو:

يعد عبد الحميد بورايو من الرواد المؤسِّسين للحركة السيميائية المعاصرة في الجزائر، كما " تندرج اعماله في سياق الدراسات الحداثية التي يمَّمت شطر السرديات في مقاربتها للنصوص السردية التراثية الشعبية" (11). وذلك بغية تطوير علوم السرد انطلاقا مما تقدمه تلك النصوص من مفاهيم وتجليات.

للباحث مؤلفات عدّة في هذا المجال، كـــ: القصص الشعبي في منطقة بسكرة– دراسة ميدانية– وظّف فيها طرائقه المستمدة من المنهجية المورفولوجية البروبية للتغلغل داخل النصوص السردية، ويعد رشيد بن مالك هذا البحث (الدراسة) انطلاقا "يعكس البدايات الأولى للتوجه السيميائي في الجزائر والعالم العربي" (12).

قسَّم بورايو دراسته إلى ثلاثة فصول، تصدى من خلالها لشرح بعض المفاهيم كـــ: شرحه لمصطلح النص في قوله: " نعني بشرح النص إدماج الدالة في بنية أكبر منها تلقي الضوء على كيفية تولد هذه البنية الدالة، ويُعنى هذا الشرح بالواقع الخارجي متجاوزا بذلك النص الخاضع للتحليل، عن طريق أبنية متشابهة، توجد في وعي جمهور القص" (13).

كما خصّص الباحث، قسما للمقاربات حول الرواية الجزائرية (باللغة العربية) بحث فيه القضايا التي تحملها بعض المصطلحات كـــ: الروح الملحمية في مقاربة رواية التفكيك لـــ: رشيد بوجدرة، ومصطلحات المكان والزمان في قصص الجازية والدراويش ومصطلح حيّز النص في تحليل رواية نوار اللوز لـــ: واسيني الأعرج ومصطلح انبثاق المعنى في مقاربة لرواية رائحة الكلب لـــ: جيلالي خلاَّص.

ويعتنق البنيوية الغولدمانية في موضع آخر، حيث نجده يوظف العديد من المصطلحات، التي تحفل بالحياة الاجتماعية، والمؤثرات الخارجية مثل مصطلحات: الوعي رؤية العالم – الفهم، والتي نلمس من خلالها تأثره بالطرح التكويني للمفاهيم السردية.

وميز بورايو بين مصطلحي: الحيّز النصي (الفضاء النصي) (*) الذي اشتهر به بوتور Michel Butor ويمس شكلية الرواية من حيث الترتيب وتقسيمات الفصول والعناوين، و الحيز المكاني الذي يشمل الأماكن العينية المحسوسة أو المتخيلة، وهذا كطرح مهم ومغري للدراسة، وربما يعود سببه إلى تطور الخطاب النقدي الحديث، وما حمله من أساليب وإجراءات مستحدثة في هذا المجال.

أما دراسته التي وسمها بـــ المسار السردي وتنظيم المحتوى، وهي دراسة أملت عليه مقاربتها الأخذ بالأدوات المنهجية السيميائية، إذ يقول: " نستمد أغلب أدواتنا المنهجية من نصوص تنتمي في أغلبها لنفس المدرسة السيميائية، والتي يمكن أن نطلق عليها المدرسة الغريماصية، التي كان لها اليد الطولى في تطوير السرديات او علم السرد" (14)، مما يجعل هذه الدراسة تنضوي تحت مظلة السرديات.

تقع هذه الدراسة في ستة فصول، بعدد الحكايات التي اختارها بورايو من ألف ليلة وليلة وصدّرها بمدخل تعرض فيه بعد عرض المنهج إلى تحليل (الملفوظ السردي) ثم عمم القول في مصطلح الملفوظ السردي، ليدل على القصة وعلى المحكي، فعنده أن: " لكل قصة معنى من حيث أنها أولا منتجة لقضية تتطور، وتؤدى من خلال وحدات توزيعية، نسميها وظائف، وثانيا كونها تمثل استثمارا لعدد من الدلالات المنتمية لنسق مرجعي، وتتجسد من خلال الحوافز" (15).

من خلال هذا التحليل، نلاحظ أن بورايو وسّع من مفهوم مصطلح وظيفة عند بروب، ليشمل أحد مشكّلات المسار السردي للقصة، وهو السيرورة التنظيمية، التي تتجدد، وتفعّل البنيات العميقة للقصة، مع أنه قصر تحليله على مصطلحي: الوظيفة والحافز، ومصطلح المقطع، الذي شرحه، بالتآلف الوظيفي، المتعدد و الممنطق.

وفي موضع آخر عيّن بورايو المراحل التي تنظم الأزمنة الثلاث في السرد: ما قبل – أثناء – ما بعد وجعلها خمسة مصطلحات للمفاهيم الآتية:

–1– الوظيفة الافتتاحية – 2– اضطراب –3– تحول – 4– حل – 5– وظيفة نهائية، وهي استعارة من نموذج (كلود كازال بيبرارد) الذي طبّقه على قصص الديكاميرون التي تقتبس من ألف ليلة وليلة طريقتها في السرد(16).

وهذا التبادل في الاشتغال على المصطلح السردي، هو ما جعل الباحث يدرج في عمله ست قصص من ألف ليلة وليلة ليتخذها عيّنات يقف من خلالها على الكيفية التي تشكل بها المصطلح كأداة إجرائية ذات جدوى في فهم النص السردي، ومن ثم تجديد فهم التراث القصصي العربي لسان حال الثقافة الشعبية العربية.

المصطلح السيميائي السردي في أعمال رشيد بن مالك:

إن قضية التعامل مع المصطلح السردي، لا تزال تشكل ضبابية ومعضلة كبيرة في مجال تطبيقات المدونة النقدية العربية " إمّا أمام عدم اقتناع كل باحث بما يقدمه غيره من الدارسين، واجتهاداتهم في المجال المصطلحي، وإمّا عدم اطلاعه على ما قدمه غيره" (17) أو " برغبة فردية، تخضع لميول شخصية بدل أن تكون نتيجة لفعل معرفي جماعي" (18)، فتاه الباحث العربي، وكذا الهيئات والمجامع، أمام تراكمات اصطلاحية يعوزها الضبط المعرفي والتاريخي والإيديولوجي.

وهذا التوافر العشوائي للمصطلحات النقدية، أوجد مفهوما واحدا لعدد كبير منها، مما أدى إلى ضبابية في فهم المصطلح السردي، ومن ثم في فهم علم السرد، الذي لا يمكن بأي حال من الأحوال "عزل رصيده الاصطلاحي عما تراكم من رصيد اصطلاحي في مجال النقد الأدبي " (19)، كما تعددت دلالات المصطلح، إلى جانب الموقع التاريخي الذي يحتله في فضائه الدلالي المنتمي إليه، وهذا حال المصطلح السردي، وهو ينتقل إلى الحقل الاصطلاحي العربي، حيث تعطي تلك التحولات إمكانية التغيير الدلالي، " فكلّما تطورت المصطلحات اتخذت دلالات جديدة، بناء على المقتضيات التي عرفتها في نطاق عملية التحول "(20).

وللعمل على تجاوز تلك التحولات، يجب الحرص على نقل المصطلح بطريقة مهنيّة وواعية، لأن طريقة نقل المصطلح إلى الكيان اللغوي العربي واستعماله، هي في نفس الوقت، نقل لمحمول فكري وإبستمولوجي ووظيفي، إن لم نقل نقلا لإيديولوجيات وللعمل في هذا الاتجاه، كرّس الباحث رشيد بن مالك جهودا معتبرة في سبيل اجلاء غموض المصطلح السردي ومحاورته، متوسلا بخبرته النظرية وخلفياته الفكرية وزاده المعرفي، في عملية تلقي وترجمة المصطلح النقدي.

إن ما كان للترجمة من وشيجة حميمة في مجال التنظير السردي، وأثر جلي في نقل المصطلح وتقديمه أو تعريبه، يأخذ بأفكارنا لأن يشمل هذا الجزء، بعض النشاط الترجمي لـــ: رشيد بن مالك، والذي أنجز ضمن منظومة تلقي، وعطاء نقدي جزيل مدفوعا برغبة في التأصيل والتأسيس، ولا شك أن الطرائق التي اعتمدها المترجم متباينة منذ البداية، من حيث التركيز المزدوج على المصطلح والمفهوم، وربما ذلك استجابة لمقتضيات أفضت بها النصوص ذاتها، ونضحت بها بياناتها المتعددة، وكذا السياقات التي أسهمت في إنتاجها وتشكيلها.

والتزم الباحث بتحقيق الأجزاء الكبرى لدراسته وتعالقها وتآلفها في إطار منهجي ونسيج عام، لا يشعر القارئ إزاءه بهوة الانتقال من الغربي التنظيري، إلى المستحدث على مستوى المصطلح في الاستعمال النقدي العربي، وسار رشيد بن مالك، بالترجمة والاشتغال على المصطلح النقدي، وفق خطة حداثية وخصوصية عربية جمعت بين تطور النظريات الوافدة من الغرب، وعدم مطابقتها في نفس الوقت(21).

–ركز رشيد بن مالك محاولته في مؤلفه: البنية السردية في النظرية السيميائية على التدقيق في المفاهيم النظرية، والاشتغال على المصطلح السردي، وقد عزز الباحث مسعاه بتقديم نماذج وظيفية، تعكس جرأته على محاورة المصطلح، وهو الجانب الذي يعد غائبا عن الدراسات العربية المعاصرة، إلا أنه أوقع بـــ: رشيد بن مالك في فخ التناقضات، إذ نجده ينتقل من معنى لآخر في تعريبه للمصطلح الواحد، فضلا عن اعتماده عدم التدرج في نقل المفهوم الموحّد، دون مراعاة للتميّز الثقافي والفني الواسم للّغة العربية، وهو ما ينفي الليونة المعرفية عن المعنى ويسمه بالجمود، فضلا على النقل الآلي للمصطلح واستبدال التراجم، نحو إقراره بالتراجع عن ترجمة بعض المصطلحات في قوله: " تراجعنا في هذه الدراسة عن ترجمة الاستعمال بوصفه مقابلا لـــ: Manipulation وذلك أننا أدركنا من خلال معاينتنا للوضع المصطلحي في الدراسات اللسانية والسيميائية العربية الراهنة، أن مصطلح الاستعمال يوضع في الأغلب كمقابل لـــ: Usage، وتبنينا بعديا مصطلح الإيعاز للدكتور عبد الحميد بورايو، وقد تبين لنا أنه يحيل فقط على جانب مفهومي واحد في المصطلح [الأمر] ولا يغطي مساراته الدلالية الفرعية، ولحل هذا الإشكال ملنا إلى استعمال مصطلح التحريك للدكتور بن كراد سعيد في كتابه الموسوم بـــ: مدخل إلى السيميائيات السردية، وهي الترجمة نفسها التي وضعها أستاذنا الدكتور دانيال ريغ في قاموس السبيل... وإذا دققنا النظر في هذه الترجمة نلاحظ أن التحريك يحقق الفاعلية من جانب واحد (المحرك)، ولا يشمل اللحظة التي قد يتم فيها التواصل، المبني على الخطاب البرهاني... لهذه الاعتبارات النظرية، نتحفظ في استعمال التحريك ونقترح على السادة الأساتذة المتخصصين مصطلح التفعيل المشتق من فعّل، الذي يغطي المسارات الدلالية لفعل الفعل (22).

وهذه الطريقة في الإبانة عن المصطلح في لغته الأصلية، وما يقابله في اللغة العربية تزيد من الاضطراب الذي قد يحصل للقارئ خاصة إذا تعلق الأمر بالانتقال من ترجمة إلى أخرى أثناء التحليل، وكان بإمكان المترجم أن يحتذي التراجم التي ذكرها منذ البداية ليختار المصطلح الأوسع والأنسب للمعنى المقصود، حتى لا يقحم القارئ المبتدئ في هالة من الفوضى للمصطلحية، تنحو به مسارا يبعده عما جاء به المؤسسون الأوائل، للصرح السيميائي السردي.

و يتوضح هذا الاستعمال المضطرب لدى المترجم، أثناء تشريحه النظري للمصطلح عبر وضعيتين سرديتين مثبوتتين في السرد بعامة، والسرد العربي خاصة، إذ يظهر نشاط المرسل على صعيد معارفي " في الوظيفة الأولى من خلال العلاقة التعاقدية التي تحكم المرسل والفاعل، ويختفي المرسل بمجرد إتمام العقد، وبداية الفاعل في تحيين مشروعه إذ يظهر المرسل من جديد في نهاية الحكاية في وضعية ثانية أثناء تقويم الاداءات المحققة ظهورا يعكس انتقاله من موقع المرسل/المحرك إلى موقع المرسل/المقوّم وفي هذه الوضعية بالذات يؤول المرسل/المقوّم انطلاقا من نظام القيم المنصهر في البنية السردية والحالات المحولة، ويبتّ في صدقها "(23).

وقد كانت لدى المترجم فرصة لتجنب هذا اللبس، كلما تجاوز الحدة والغرابة المرافقتين للمصطلح اثناء نقل المفهوم، وتعامل مع المصطلح وفق ما تقتضيه فنيات النقل التدريجي لما لها من أثر، في معايشة المصطلح وتقبله، ثم استبعد الارتجال في الترجمة والتعريب مما يسهل على القارئ العربي إيجاد المراد العلمي المنشود من المصطلح، وتداوله داخل المنظومات العلائقية المختلفة.

أما في ترجمته لكتاب: السيميائية أصولها وقواعدها، والتي حفَّها الغموض منذ البداية، حول إمكان اشتراك عز الدين المناصرة فيها، بشكل غير واضح، وعمومية تناولها للسيميائية، واقتصارها على دراسات قليلة التداول مقارنة مع تجليات غريماس في الدرس العربي(24)، وعلى الرغم من ذلك، فقد ضمنها رشيد بن مالك، فسحة لمجموعة من الدراسات المحوريّة، المؤسسة للصرح السيميائي الغربي، وهي:

السيميائية الأدبية لـــ: ميشال آريفيه: وتعرض فيها لمصطلح السيميائية الموصوفة بـــ الأدبية وأسمائها وعلاقاتها بالنشاطات المرتبطة بها، ومفاهيم كـــ: التقرير Dérotation، والإيحاء (25) Connotation المستمدة من هيلمسلف،

والتي احتلت مكانة هامة في أعمال السيميائية الأدبية، ثم تحدث عن مصطلحات السيميائية الأدبية عند جاكبسون والشكلانيون الروس على غرار الأدبية، " فموضوع الأدب كما أشار إلى ذلك جاكبسون منذ عام 1921 ليس الأدب بكامله ولكن أدبيته Literaturnost يعني ما يجعل منه مؤلفا أدبيا "(26).

كما وقف المترجم على بعض مناحي الصعوبة المصطلحية، مثل المقابلة التي أقامها بنفينست بين "الدلالي Le sémantique المترجم بـــ: الصيغة الخصوصية للدلالة التي أنتجها الخطاب، وLe sémiotique الذي يشير إلى الصيغة الدلائلية الخاصة بالدليل اللساني، والتي تؤسسه كوحدة" (27)، وأسس المترجم على ذلك كيفية بناء موضوع السيميائية الأدبية من كون النص يفتقد سلفا إلى التشفير اللساني، وعلى السيميائي أن يحلل نظام المعنى اللساني للمجموعة الدلالية التي يشكلها النص.

كما نقل رشيد بن مالك عن ميشال آريفيه ترجمته لبعض المصطلحات التي تحدد مفاصل الجهاز النظري للسيميائية التحليلية وهي: التدليل Signifiance الذي يشير إلى الهيئة في حكم البنية الفونيمية (لاكان) أين يتمفصل ويحلل الدال في الخطاب حيث نقل عن جوليا كريستيفا تحليلها لتعاريف بنفينست الذي يفهم من التدليل هذا العمل الخاص بالتميز، التنضيد والمواجهة الذي يمارس في اللغة، ويودع في خط الفاعل المتكلم... حيث تجتاز السيميائية التحليلية الدال، لتصل إلى هذه المنطقة التدليل، والتي تتشكل فيها النواة الدلالية داخل اللغة (28).

بالإضافة إلى عرض المترجم لمفاهيم متعلقة بـــ: النص لدى ميشال آريفيه وكريستيفا، مثل اصطلاح النص، الموصوف بالعملية اللسانية التجاوزية التي تتشكل في اللغة وتكون غير قابلة للاختزال، ويحدد إلى المقولات المعروفة الخاصة بكلام التبليغ موضوع اللسانيات، كما تعرض المترجم في فرع الدراسة المعنون بـــ: السيميائية نظرية لتحليل الخطاب، لدراسة تنسب إلى جان كلود جيرو ولوي بانيه حصرا فيها مصطلحات المستوى الخطابي كالصور والمسارات الصورية، والقيم الموضوعاتية ومصطلحات المستوى السردي مثل الرسم السردي، التحريك، الكفاءة، الأداء التقييم، التصديق والمربع السيميائي...إلخ، بالإضافة إلى عرضه لمصطلح التلفظ في التحليل السيميائي، كونه نشاط لفاعل يتكلم ويكتب ويلفظ خطابا.

أما القسم الثالث، والذي ترجم فيه رشيد بن مالك، بالتعاون مع الناقد عبد الحميد بورايو، لدراسة مقتطفة من كتاب: Analyse sémiotique du discours de l’énonce a l’énonciation ، لجوزيف كورتيس– أحد أساطين السيميائية السردية المعاصرين– بعنوان: التشاكل والترابط، بين التعبير والمضمون، الموكب الجنائزي عرض فيها أهم مصطلحات التفكير اللساني والسيميائي الغربي، بالاشتغال على المصطلح ومضامين النص المترجم، إلا أنذلك التحليل وسمه الغموض بسبب افتقاره لمعجمية قارّة، يتداولها المترجم لتذليل رقبة المصطلح وحمله على تفريغ شحناته الدلالية، لولا إيغاله في الترجمة المباشرة، والتلقائية لمحمولات المصطلح.

أما في ترجمة لكتاب جان كلود كوكي الموسوم بـــ: السيميائية: مدرسة باريس Sémiotique l'école de paris (29)، فقد مدَّ رشيد بن مالك القارئ (الباحث) بجملة من المصطلحات، التي تمكنه من الإلمام بهذا التيار المعرفي في أصوله وتشد أزره في تأسيس معرفة جديدة، تقيم شرعيتها على إدراك عميق وواعٍ للسياقات التي أنتجت فيها، والمبادئ التي شيدت عليها، وهذا النوع من الدراسات يعوز الساحة النقدية العربية، والتي وإن "وجدت فإن القارئ العربي يلقى مشقة كبيرة في فهمها وتمثلها واستساغتها وفك رموزها ومصطلحاتها،....عند مقاربته الفهم والتطبيق ... وكثيرا ما ترد النصوص المترجمة بلغة عربية مفككة يغلب عليها الغموض والتضارب في الأفكار والخلط بين المفاهيم، واستعمال مصطلحات مضطربة، لا يولي اصحابها عواقبا لوضعها" (30).

ويردف رشيد بن مالك أن الصعوبات التي واجهته في نقل المصطلح، ناتجة أساسا عن غموض المصطلحية في البحوث السيميائية العربية، الترجمات منها والدراسات وغياب مصطلحية موحدة في البحث (31)، إذ استعان بـــ:

قاموس السبيل لـــ: دانيال ريغ ودراسات بعض الرواد المؤسِّسين للحركة السيميائية في الجزائر مثل: عبد الحميد بورايو، إضافة إلى جهود بعض السيميائيين العرب مثل: الناقد العربي السعيد بنكراد لما لهذه الأخيرة من مرونة في نقل المفاهيم، والمصطلحات السيميائية الغريماسية.

غير أنه اكتفى بإدراج المصطلحات العربية المقابلة للاتينية، دون الإحالة على الأصل المترجم إلا في القليل النادر، وقد أسهمت طريقة الترجمة التي توخّاها رشيد بن مالك لتقديم المؤلف: جان كلود كوكي، في وضوح الرؤية ويسر الفهم على النص رغم أن المترجم نقل إشارات جان كلود كوكي المؤلف الأصلي، بإيجاز بليغ (32).

إن ما يثير الانتباه في هذا الصدد، هو أن المترجم لم يتحرَ أكثر الموضوعية في ترجمة بعض المصطلحات الفرنسية إلى العربية مثل الكلمة الفرنسية Simulacre التي ترجمها إلى انطباع، وهي تبعد عن المعنى الظاهر الذي تدل عليه هذه الكلمة.

بالإضافة إلى ترجمته العربية لمصطلح Schéma narratifبـــ: الرسم الموجه بدلا من المخطط السردي وكذا مصطلح المربع السيميائي Le carré narratif والمسار التوليدي Le parcours génératif والفاعـــل L'actant وغيرها من مصطلحات الجهاز السيميائي التي اتكأ عليها غريماس، وكان من الأجدر أن يقابل المترجم المصطلح بالمترجمة الأصل، أمانة للترجمة، وبعدا عن الخلط.

وبمواصلة القراءة في هذا العمل المنقول وقعنا على عنوان صاغه المترجم كالآتي:

- النحو: البنية الأولية والمربع السيميائي.
- المسار التوليدي: الملفوظ الأولي، عدد العوامل، العلاقات الأولية، الجهات التلفظ، الفاعل، التاريخ، الصدق

ولعل ما يسكن هذه المصطلحات جميعا من إشارات وتوضيحات وتعريفات موصولا بالمنجزات التي قامت عليها نظرية غريماس فقد جمعنا ثلاث ملحوظات للمؤلف حول تشكيل المربع السيميائي واستعماله، ومنها ما قام المترجم بنقلها على النحو التالي: " تسند إقامة المربع منذ ظهور الدلالة البنيوية إلى تحليل عملين أساسيين هما: الإثبات والنفي، يعتبرهما القاموس متكليات Méta- universaux، في سعينا إلى وصف تسلسل هذه العمليات المفصلة للمعنى الموجود هنا سلفا في شكل رسوم، أشار أ.ج. غريماس في الدلالة البنيوية إلى أن الموضوع كان ينبغي أن يوجد أولا لينفي أو يؤكد بعد ذلك "(33)، ورغم هذا التوضيح من الناقد، الاَّ أن هذه الفقرة تكتنفها الضبابية عندما يريد الباحث استيعاب المفهوم.

جعل المترجم رشيد بن مالك مصطلح الدلالة البنيوية، مقابلا للمصطلح الأجنبي Sémantiqu structurale فقد جعل النفي بدل الإنكار Dénégation والإثبات مقابلا لـــ Affirmation ليصل أخيرا إلى إدراجهما حسب ما ورد في قاموس غريماس وكورتيس من المتكليات، هنا يضع المترجم المصطلح الأصلي لهذه الكلمة Méta-universaux وكان من الخليق به أن يعتمد هذه الترجمة مع جل المصطلحات التي تصدى لترجمتها.

بالإضافة إلى ذلك، فقد ترك المترجم إزالة اللبس المفهومي والمصطلحي، عن مصطلح:Les universaux الذي ترجمه بـــ: كليات لأنه يثير العديد من الإشكالات، كما ورد في المعجم المعقلن الذي يقول فيه صاحباه: " تقدم مشكلة الكليات Les universaux نفسها على أنها مشكلة كلامية، ويعني ذلك الإبانة عن الأسئلة التالية: كيف ؟ وبواسطة أي مواد ؟ وما هي الترتيبات واليقينيات Les certitudes التي يبنى المتكلامLe métalangage عليها؟ فإن مصطلح متكليات سيولد بلا ريب مشكلات عويصة بالنظر إلى ما يمكن أن يحيل عليه المصطلح ومحموله على حد سواء" (34).

وما نلمسه في هذا الموضع، هو مصداقية رشيد بن مالك، ومهنيَّته التي اختصرها في تعامله الحِرَفيِّ مع المصطلحات، اثناء النقل والترجمة والشرح، وإظهار المرونة في التعامل مع المفاهيم، ومثل ذلك يتبدى في تفريقه بين

العلاقات، Les relations والعمليات، Les opérations والتحويلات، Les transformations وكذا بين المستوى السطحي، Le niveau de surface والمستوى العميق Le niveau profond وبين ملفوظات الفعل، Enonce de faire وملفوظات الحالة، Enonce d'état.

إن هذا العمل المترجم لجان كلود كوكي، والطريقة التي توخّاها رشيد بن مالك في الترجمة والتي يميزها الأثر البارز في وضوح الرؤية وسلاسة الفهم وتحديد المقصد الناجم عن تمثله لهذا التيار في أصوله ومقاصده المنهجية، مما يعطي عمله قدرا كبيرا من الأهمية لما يحتويه من معطيات معرفية، تسهم فيفتح ابواب المثاقفة للباحث، وتنوير القارئ العربي وتمكن له تذليل الصعوبات عن طريق اهتمامها بالجوانب المعرفية والنظرية وكذا انشغالها المتواصل بالإشكالات المنهجية على حد سواء.

أما ثبت المصطلحات، الذي ذيّل به رشيد بن مالك ترجمته، فإنه فضلا عن كونه غير كافٍ، لافتقاره إلى عنصر الدقة في المتن فإنه يحتاج إلى العملية والمرونة في إرشاد القارئ إلى المقابل الترجمي للمصطلح، وهذا ما يؤدي إلى نشر الغموض واللبس في أغلب الأحيان.

كما نقل رشيد بن مالك أحد مؤلفات آن إينو، الموسوم بـــ: تاريخ السيميائية للغة العربية، وهي ترجمة للمؤلَّف الأصلي المعنون بـــ: Histoire de la sémiotique، حيث لم يخرج فيه عن آلية الترجمة المألوفة لديه والمميزة بالنقل الحرفي للمصطلح والغموض في جميع أجزائها، رغم أهميته في التأصيل للنظرية السيميائية وأعلامها، وربما ترجع الترجمة الحرفية التي تحرّاها رشيد بن مالك، إلى غزارة وتداخل المصطلحات الغريماسية، والدقة الشديدة التي تتميز بها تلك المصطلحات من الناحية الإجرائية.

من البين أن المترجم رشيد بن مالك يدرك تماما ركوبه مركبا صعبا، فاستجمع لذلك عدة منهجية، تحرى في اعتمادها الدقة والأصالة، وهو ما يتجسد في توخيه عن قصد أو عن غير قصد مد القارئ العربي بجملة من التوجيهات القرائية والمصطلحات التي تمكنه من الإلمام بهذا التيار المعرفي(35)، ووفق في اختيار النصوص المترجمة التي تجلو الرؤية عن قواعد البحث في المصطلح السردي.

وفي الأخير ينبغي أن نشير إلى أن ترجمة المصطلح، " عملية بالغة التعقيد متعددة الجوانب شائكة المسالك " (36)، مما حال دون البحث وتمحيص جميع الأعمال المترجمة لـــهذا الرعيل من النقاد والمترجمين الجزائريين ومنجزاتهم في هذا الميدان، وما قدموه على مستوى التلقي والترجمة يعد بحق محطة معرفية أخرى اسهمت في تخصيب عقل القارئ العربي عموما والجزائري خصوصا، ومكنته من الخوض بيسر في الدرس السيميائي الغربي، بما وضعته بين يديه من جهاز اصطلاحي، يساعده على اقتحام أغوار النصوص السردية المختلفة.

الهوامش

1- حسين. على جمعـــة: المسبار في النقد الأدبي، دراسة في نقد النقد للأدب القديم والتناص، ص 145.
2- سليمة. لوكـــــام: تلقي السرديات في النقد المغاربي، ص 193.
3- المرجع نفسه، ص 194.
4- عبد المالك. مرتاض: في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد، سلسلة عالم المعرفة، ص 211.
5- سليمة لوكام، المرجع السابق، ص 194.
6- ينظر: المرجع نفسه، ص 195.
7- ينظر: عبد المالك مرتاض، المرجع السابق، ص 212.
8- ينظر: سليمة لوكام، المرجع السابق، ص 201.
9- عبد المالك مرتاض، المرجع السابق، ص 224.

10-ينظر: سليمة لوكام، المرجع السابق، ص 202.
11-المرجع نفسه، ص326.
12-رشيد. بن مالك: البنية السردية في النظرية السيميائية، .ص 55.
13-عبد الحميد. بورايو: القصص الشعبي في منطقة بسكرة، دراسة ميدانية، ص197.
14-ينظر: عبد الحميد. بورايــو: المسار السردي وتنظيم المحتوى: دراسة سيميائية لنماذج من حكايات ألف ليلة وليلة مخطــوط رسالة دكتوراه دولة .ص: المقدمة.
15-المرجع نفسه، ص 15.
16-ينظر: سليمة لوكام، مرجع سابق، ص 330.
17-سعيــد. بنكـــــراد: مدخل إلى السيميائيات السردية، ص 32.
18-مجلّة: المصطلح، مجلة علمية أكاديمية، ص 33.
19-سعيد يقطين، المصطلح السردي، قضايا واقتراحات، www.saidyaktine.com.patrimoi.htm
20-المرجع نفسه، الرابط نفسه.
21-ينظر: رشيد بن مالك، السيميائيات السردية، ص 07.
22-المرجع نفسه، ص27.
23-المرجع نفسه، ص 31.
24-ينظر: سليمة لوكام، مرجع سابق، ص 339.
25-ميشال. آريفيه، جان كلود. جيرو، لوي. بانيه، جوزيف كورتيس: السيميائية: أصولها وقواعدها، ص 74.
26-المرجع نفسه، ص 76.
27-المرجع نفسه، ص 85.
28-المرجع نفسه، ص 93.
29-ينظر: جان كلود كوكي، السيميائية مدرسة بارس، ص 05-06 .
Jen Claude coquet: Sémiotique l'école de paris, hachette université, Paris, 1982.
وينظر: سليمة لوكام، المرجع السابق، ص240.
30-ينظر: جان كلود كوكي، المرجع السابق، ص 10.
31-ينظر: سليمة لوكام، المرجع السابق، ص241.
32-جان كلود كوكي، المرجع السابق ، ص 97-99 .
33-وينظر: سليمة لوكام، المرجع السابق، ص 242.
34-سليمة لوكام، المرجع نفسه، ص 243- 244.
35-ينظر: سليمة لوكام، المرجع نفسه، ص241.
36-المرجع نفسه، ص 244.

- (*) الفضاء النصي عند Michel Butor هو: ما تعلق بفضاء النص مثل تقسيم الرواية إلى فصول، وانتشار الكتابــة علــى الصفحات وهو فضاء عادي متناسق مع الفضاء الروائي.